المحاضرة الرابعة: المسرح الغربي القديم (الإغريقي و الروماني) .

شهد الإغريق القدماء البداية الحقيقية للمسرح، وخاصة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، حين بلغت الحضارة اليونانية أوج ازدهارها في كل مجال من مجالات الحياة، في الحرب و الفلسفة وفي العمارة وسائر الفنون[36] .

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن بعض الدراسات تذكر أن الحضارة المصرية القديمة قد عرفت شكلا من الفن المسرحي، وبخاصة من خلال ما تعلق بتمثيليات المصريين القدامى حول البحيرة المقدسة ، أو ما ذكره المؤرخون من تلك التمثيليات التي تصف لنا طقوسا دينية درامية ، تصور قصة العثور على الإله الممزق و المفقود، إله الخصب أوزوريس.

فالمسلم به أن المصريين القدامى عرفوا هذه الطقوس الدينية التي تجري مجرى الدراما، وهي أقرب الأشياء إلى ما عرفه المسيحيون في أوربا في القرون الوسطى من تمثيلهم لقصة ألام المسيح وصلبه وقيامه، ذلك مسلم به من نصوص هيرودوت في مدينة هايس، ورأى بلورتاك شيئا يشبهها بعده بنحو ثلاثة قرون، وهو الثابت من النصوص المصرية القديمة نفسها، وبخاصة من نقش يعود إلى القرن العشرين قبل الميلاد، وقد نشره الأستاذ شيفر في عام 1904م، في كتابه أسرار أوزيريس ، في عهد الملك سيزوستريس الثالث [37] .

وبالرغم من هذا ، فإن الغلبة الغالبة من البحوث و الدراسات ، ترجع نشأة المسرحية إلى الحضارة اليونانية ، وتجعل أرض اليونان ميهاد المسرحية الحالية، فقد وضع" أسخيلوس –456/525–ق م، أول مسرحية شعرية وهي الضارعات، حوالي سنة 490 ق م، وكان فيها ممثلان رئيسيان بجانب الفرقة، ثم توالى نتاجه المسرحي إلى أن ظهر سوفوكليس الشاعر اليوناني الكبير–416/490– ق م ، وأضاف ممثلا ثالثا إلى الممثلين

---

[36] ينظر: سمير سرحان ،دراسات في الأدب المسرحي ،ص15.

[37] إدوارد الخراط ، فجر المسرح–دراسات في نشأة المسرح– ، دار البستاني للنشر و التوزيع ، القاهرة/مصر ، 2003م،ط01، 96/95.

اللذين أدخلهما أسخيلوس، وقوى جانب التمثيل على جانب الغناء ...ويعتبر اليونان أول من اهتم بالمسرح، ووضع له نظاما خاصا، وعنهم أخذ العالم هذا الفن " [38] .

إن الدراما في البيئة الإغريقية، لم توجد صدفة، ولم تنبت اعتباطا، بل أوجدتها عوامل اجتماعية وسياسية وجغرافية ، وساعدت على ازدهارها ظروفا مواتية تضافرت كلها كي تخلق مناخا صالحا ينبت فيه هذا الفن الأدبي الأصيل حتى يبلغ قمته عن طريق المسرح، لقد كانت الدراما دونها كتاب المسرح الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد، بمثابة تتويج لفكر الإغريق الدرامي، الذي قطع منذ مولده على عهد هوميروس شوطا طويلا، لم يقدر لأي شعب آخر أن يجاريه فيه، وظلت الدراما ابتكارا إغريقيا خالصا، أنتجته العقلية الإغريقية بما توافر لها من عوامل لم يتح مثلها لأية أمة أخرى في العالم القديم [39] .

وقد ازدهر الفعل المسرحي في بلاد اليونان القديمة، في الفترة مابين(550/220 ق م)، وقد نشأ نشأة دينية، من خلال تلك الاحتفالات التي كانت تقام تقديسا للآلهة" الدين اليوناني هو الذي أهدى هذا الفن إلى الأمة اليونانية، فإن لكل إله من آلهة اليونان حياة خاصة لقي فيها من ضروب الخير و الشر ، ومن صنوف النعيم و البؤس ما حببه إلى الشعب و أقام في نفسه مكانة ما ، وقد كان اليونان إذا عبدوا آلهتهم حرصوا كل الحرص بأن يظهروا تأثرهم بما ملأ حياة الآلهة من خطوب ، فيفرحون لما مالهم من نعيم ، ويحزنون لما أصابهم من شقاء ، وكانوا لا يكتفون باستشعار الفرح و الحزن في نفوسهم ، بل يظهرون ذلك إظهارا و يشتركون فيه اشتراكا، و أوضح طريق تخيلوها لإظهار ما يسرهم أو يحزنهم من حياة الآلهة ، وما عرض لهم فيها من خطب ، إنما تمثيلهم هذه الحياة وما اشتملت عليه في أطوارها المختلفة ، ذلك هو مصدر كثير من الحفلات ، التي كان يقيمها اليونان لآلهتهم وأبطالهم من حين إلى حين ، ومن هنا نشأ فن التمثيل " [40] .

---

[38] عمر الدسوقي ، المسرحية –نشأتها و تاريخها و أصولها–، دار الفكر العربي، القاهرة/مصر، د ت، دط، ص06.

[39] محمد حمدي إبراهيم، نظرية الدراما الإغريقية ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، الجيزة/مصر ، 1994م، ط01، ص08.

[40] طه حسين ، صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان ، دار هنداوي للنشر و التوزيع ، القاهرة/مصر ، 2012م،دط ،ص 23/22.

وفي النصف الثاني من القرن السادس ق م، كان يسيطر على أثينا الطاغية"بيزسترات"[41]، الذي دشن أعيادا رائعة وجديدة ، ومن بينها عيد"ديونسيوس" إله الخمر ، التي كانت عبادته تعجب الشعب كثيرا ، وقد رويت الأحداث المأخوذة من أسطورة ديونسيوس في قصائد مدح ، وهي أنواع من الأناشيد التي تستخدم لغة قريبة من الهذيان الشعري ، وهي مصحوبة بالرقصات وتؤديها جوقة من خمسين شخصا ، وفي نحو 520ق م ، أدخل ممثلا يضع قناعا يجسد أشخاص الأسطورة ، ومن هذا التجديد ولدت "المأساة" في أثينا التي نقلتها إلى جميع أنحاء أوربا ، وفي العصور اليونانية القديمة ، كان الموضوع مستمدا من دائما من الأساطير ، أما الكوميديا "الملهاة" فهي شكل آخر للفن المسرحي ، يضع على المسرح حياة الناس اليومية ، في أوضاع غير معقولة ، وخيالية عجيبة [42] .

الدراما الإغريقية/الظهور،النضج،الانحسار:

تعد بلاد اليونان مهد الفن المسرحي، فإليها ينسب أقدم فحول شعراء المسرح، أيسخولوس(Aeschulos)،وسوفوكليس(sophokles)،ويوربيديس(Euripides)،ومناند روس(Menandros)...وغيرهم، وقد نظم هؤلاء الفحول من الشعراء مئات المسرحيات الخالدة، والتي يعود إليها وإلى أصحابها فضل إرساء قواعد ودعائم هذا الفن المسرحي.

لقد أرسى أيسخولوس (456/525 ق م)، الأسس الثابتة للمأساة اليونانية قبل آرسطو بحوالي قرن ونصف قرن من الزمان، وذلك بالطبع بعد أن تشبع بالمبادئ الأولية التي تركها آريون(600 ق م)، ثم فرينيخوس(511-472 ق م)، وما أضفاه عليها من قوته الجبارة، ومقدرته العجيبة في رسم الشخصيات التي كان عرضها يبدو شاحبا من قبل، ولقد فاز أسخيلوس بجائزة المأساة في سنة 496 قم، ثم قدم للمسرح بعد ذلك حوالي

---

[41]. لم يكن بيزسترات طاغية بالمعنى الذي نفهمه اليوم، وإنما كان مصلحا ممتازا، فقد كانت كلمة طاغية (turannos)، تطلق في اللغة اليونانية، على من يغتصب السلطة لنفسه بغض النظر عن نظام الحكم الذي يتبعه، إن عدلا وإن جورا، ينظر: محمد صقر خفاجة، دراسات في المسرحية اليونانية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة/مصر، د ت ، ط01، ص04.

[42] آنيك بنوا دوزوسوي وغي فونتين، تاريخ الآداب الأوروبية –من الأصول حتى نهاية القرون الوسطى–، تر: صباح الجهيم ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق/سوريا، 2013م،ط01، ص 37/36.

سبعين مسرحية لم يصل منها إلا سبع، أشهرها: "الضارعات"و"بروميثيوس مصفدا"و"السبعة ضد طيبة"وثلاثية "أوستيا" التي تضم "أغاممنون"[43].

وقد أشرنا سلفا، أن الدين اليوناني الوثني –من خلال الإيمان بالأساطير– كان له الأثر الأبرز في نشأة الأدب المسرحي، وبخاصة في مرحلة البدايات مع أيسخولوس، الذي كرس من خلال أعماله المسرحية اهتمام اليونانيين بآلهتهم ، وتعظيمهم لها" فكان أيسخولوس يشيد بهم دائما، ويتغنى بعدلهم ويمجد سلطانهم، فزيوس عنده هو الإله الأكبر ذو القوة و السلطان، العادل الذي لا يظلم أحدا، و القاهر الذي يقهر كل عنيد جبار" [44].

وقد اختلف الأمر في عهد سوفوكليس (490–406 ق م)، الذي جاء في فترة " تحررت فيه عقول الأثينيين على يد الفلاسفة و المفكرين الذين علموهم كيف يفسرون الظواهر، وكيف ينبذون التقاليد البالية، وهكذا مرت أثينا بفترة اهتزت فيها أركان العقائد المتوارثة، والعادات السقيمة" [45].

وقد مثل سوفوكليس الروح اليونانية الخالصة خيرا مما كان يمثلها أيسخولوس، وقد كان أكثر منه نضجا وتجانسا فنيا، وإن افتقدنا فيه ذلك السؤدد الآخاذ الذي هو من خصائص أيسخولوس،ومن أروع أعمال سوفوكليس المسرحية: "أنتيغون"و"أوديب ملكا"و"إلكترا"، ثم جاء بعدهما يوربيدس(480–406 ق م)، فكان أكثر إنسانية، وأقل صبغة دينية، وهو الذي أنزل المأساة من السموات التي كانت تسبح فيها، وجعلها منذ ذلك التاريخ تعيش في مستويات الحياة الإنسانية العادية [46].

لقد كان أدب هؤلاء الشعراء الثلاثة يزخر بالجمال، والظاهر أن هذا الجمال أخذ يتلاشى من بعدهم، وقد كان أرسطو، الذي كتب ما كتب سنة 230 ق م وما قبلها، يجد بين يديه أبدع آيات المآسي التي استطاع الإلهام اليوناني أن يتنزل بها، إلا أنه لم يجد من ذلك شيئا جديدا، أو شيئا يجيش بالحياة فيما كان ينتجه معاصروه، فقد كان الشعراء

---

[43] الأرديس نيكول، علم المسرحية، تر: دريني خشبة، دار سعاد الصباح للنشر و التوزيع، الكويت، 1992،ط02،ص04.

[44] محمد صقر خفاجة، دراسات في المسرحية اليونانية، ص 09.

[45] المرجع السابق، ص09.

[46]. الأرديس نيكول، علم المسرحية،ص04.

الناشئون يتخذون من الروائع القديمة نماذج يحتذونها، وكان يبدو كأنما روح الابتكار قد عفى عليه الزمن في ذلك العهد، وكأنما –ثالوث– هؤلاء الشعراء الكبار قد جابوا كل صقع كان يحتمل أن يجوبه الكاتب المسرحي المجد [47] .

هذا فيما تعلق بفن المأساة عند اليونان القدامى، أما تعلق بفن الملهاة عندهم، فقد درج المؤرخون على تقسيم مراحلها، إلى أقسام ثلاثة هي [48] :

1–الملهاة القديمة:وقد امتدت على وجه التقريب من سنة470 إلى سنة390 ق م، وكانت تتمثل في أعمال أرستوفانيس(المولود سنة 448 ق م) أكبر تمثيل، ولقد كانت تتسم بالصبغة السياسية على نطاق كبير، كما كانت تهتم بالأنماط و الحوادث غير الواقعية و المغالى فيها، مما هو من ثمرات الخيال.

2–الملهاة الوسيطة/ الاجتماعية.

3–الملهاة الحديثة/ السلوكية: والتي اكتسبت أهم خصائصها على يدي ميناندر(menander)، ولم تظهر إلا حوالي سنة 320 ق م، وقد ظل هذا الفن مزدهرا حتى أواسط القرن الثالث ق م، ثم تلاشى بعد ذلك كما تلاشت المأساة.

الدراما الرومانية:

لقد كان للحضارة الإغريقية، من خلال ما وصلت إليه من رقي كبير، تأثيرا واسعا في الحضارة الرومانية، وفي جميع مناحي الحياة: السياسية والاجتماعية والثقافية، وفي نظم التعليم وفي الفلسفة والنقد والفنون والآداب، وفي هذه الأخيرة تحديدا، نذكر: إنه منذ خضوع شبه الجزيرة اليونانية للحكم الروماني عام 146 ق م، أي "في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، كان الأدب اللاتيني قد تأسس، وبالطبع كان متأثرا إلى حد كبير بالإغريق" [49] .

وفيما تعلق بالمسرحية الرومانية، التي لها كثير الأثر في المسرحيات الأوربية الحديثة في فرنسا، وفي إيطاليا، وانجلترا، فقد جاءت تقليدا للمسرحية اليونانية، إذ سطا الكتاب

---

[47]. المرجع نفسه،ص04.

[48]. المرجع السابق،ص05.

[49]. مارفن كالرلسون،نظريات المسرح،عرض نقدي و تاريخي–من الإغريق إلى الوقت الحاض–تر:وجدي زيد،المركز القومي للترجمة،القاهرة/مصر،2010،ط01،ص33.

الرومانيون على الأدب الإغريقي ينهبونه نهبا، وأول من اشتهر من كتاب الرومان في الأدب المسرحي اثنان من أصحاب الملهاة، هما "بلوتوس، المتوفي سنة 184 ق م"و"تيرانس-159/185ق م"، وإليهما يرجع الفضل في إحياء بعض الملاهي الإغريقية التي عفى عليها الزمن [50].

لم تظفر الحضارة الرومانية، بما ظفرت به سابقتها اليونانية من آثار مسرحية عظيمة، على أنه من العسير أن نحكم على المسرحية الرومانية، وكيف نحكم عليها وهؤلاء الشعراء المسرحيون الرومان الذين اشتهروا في وقت واحد، من مثل:إنيوس(229-169 ق م)، وياكيثيوس(220-130 ق م)، و آكيوس (170-86 ق م)، لم تصلنا من مسرحياتهم إلا شذرات قليلة فحسب، ولم يسلم من يد البلى سوى مآسي سنكا العشر، من المسرحيات اللاتينية الجديدة، وقد كتب كل من بلوتوس وتيرانس ملاهيهما، في تلك الآونة على وجه التحقيق [51].

لقد نشأ الشاعر الروماني بلوتوس في البؤس، واضطر إلى كسب عيشه بالعمل الشاق، والتجأ إلى المسرح ليحسن حاله، ولذلك كانت لكل مسرحياته نكهة شعبية قوية، إذ كان يريد النجاح، ولذلك كان يمالئ الجمهور، ويقدم ما يسره ويضحكه، ولم يتلمس تقدير الأدباء و النقاد [52] **، ونذكر من بين أعماله المسرحية: "أمفيترو"و"الإله ميناخيمي"و"وعاءالذهب" و"منزل الأشباح"...وغيرها.**

وأما "ترنيتيوس" والذي كان من سكان قرطاجة، وأغلب الظن أنه كان زنجي الأصل، وقد أحضر إلى روما رقيقا في شبابه، ويبدو أنه كان على صلة بدائرة صغيرة من الأدباء، وأنه قد كتب ملاهيه باعترافه لإمتاع هذه الحلقة لا للحصول على تصفيق الجماهير، ولذلك كان أرقى من بلوتوس أسلوبا وأقرب إلى الروح الإغريقية منه، ولكنه استعبد نفسه استعبادا لليونان، بل نستطيع القول : إنه استعبد نفسه لميناندر دون سواه، ولذلك قلد ولم يخلق [53].

---

[50]. عمر الدسوقي ، المسرحية -نشأتها و تاريخها و أصولها-، ص09.

[51]. الأرديس نيكول، علم المسرحية،ص09.

[52]. عمر الدسوقي ، المسرحية -نشأتها و تاريخها و أصولها-، ص09.

[53]. المرجع نفسه، ص09.

ومن أشهر أعمال "ترنيتيوس" نذكر:"أندريا""المعذب لنفسه"و"الخصي"و"الأخوان"...وغيرها.

هذا في الملهاة، أما المأساة فكاتبها عند الرومان هو "سنكا"، وقد كان له الأثر البعيد في المأساة الأوربية، ولاسيما الإنجليزية، لإنه لم يكن يتورع معن تمثيل الغلظة و القسوة والمفزعات والأشباح والمناظر الحزينة والفظائع على المسرح، وقد أفاد شكسبير من كل هذا فيما بعد، ومأساة سنكا لا تعد من النوع الجيد، ولم يعرف التاريخ سنكا بكتابته المسرحية بقدر ما يذكره فيلسوفا يعنق مذهب الرواقيين، وأستاذا مربيا لطاغية الرومان نيرون [54].

وبالرغم من كل هذا، فإن الأدب المسرحي لم يزدهر في بلاد الرومان، إذ لم تسمح طبيعة الشعب الروماني الاجتماعية، وميله إلى مشاهدة المناظر الحية المثيرة كمصارعات الوحوش بتطور المسرحية الفنية، وقد كان لذلك أثره في انحطاط المأساة، فقد كانت الملهاة أسعد حظا إذ تقدمت عما وصلت إليه المأساة، على أن الملهاة الرومانية في أرفع صورها، لم تتفوق على الملهاة الإغريقية الرفيعة [55].

---

[54]. نفسه، ص10.

[55]. محمود حامد شوكت، المسرحية في شعر شوقي، طبع مطبعة المقتطف،القاهرة/مصر، 1947 م، ط01،ص06.